

القيَم الروحية للاستشهاد المسيحي :

لقد كانت المطابق والسجون في عصور الاضطهاد غاية في البشاعة ، عبارة عن أماكن محرومة من الهواء والنور ، تنتشر فيها القاذورات والأمراض بشكل يفوق الوصف ، حتى أن كثيرين ماتوا بسبب الازدحام والتكدس والخنق لعدم تجدد الهواء .

قيود حديدية ، خنق ، جوع ، عطش ، مقطرة ، الإلقاء في المحارث الداخلية والمطابق المُعتمة الأكثر سواداً من الظلمة ، الضيقة الجهات حيث الليل الأبدي ورُعبة الموت ... وبالرغم من كل ذلك ، كانت القيود للمسيحيين كالقلائد الإيمانية “ مرحباً بالسلاسل التي هي أعلى من قلائد الذهب !!! ” .

حتى أن البابا بطرس السابع عشر عندما زار القديس صرابامون في سجنه داخل زنزانته قبله وقبل جراحاته وقيوده ، وهو ما حدث مع أغناطيوس الأنطاكي .

ومن بين القيَم الروحية التي سادت في وسط الآلام نجد الأغابي والافتقاد والتشجيع والحرارة الروحية وعدم التهيج ، ويذكر التاريخ الكنسي أن القديس يوليوس الأفهصي كرّس كل ثروته وحُذّامه لافتقاد المسجونين بالأسكندرية والترفيه عنهم ، وكتابة محاكمة وقضية كل شهيد والعناية بجسده ، والاحتفاظ بهذه الذخائر المقدسة .

هؤلاء الشهداء أحبوا المسيح وسفكوا دماءهم من أجله ، كانوا أقوى من مُعذبيهم وأشجع من مُضطهديهم حيث ذروة التشبُّب الروحي ، وخاصة بافتقاد السماء ورؤية رب المجد يسوع وسحابة الغالبين ، مما أثار دهشة الوثنيين ، وجعلهم هم يُؤمنون بالمسيح ربنا وسط التهليل والتسبيح والدماء الطاهرة .

يا لها من عصور أُشعلت فيها النيران في المسيحيين بعد أن دهنوهم بالقار والزيت والصبغ وسمروهم في الأعمدة ليضيئوا كالمشاعل لتسلية الجماهير .

الإ أن الشهداء تمسكوا بالحياة الأبدية (2كو 4 : 17 + 1كو 7 : 29) ، وبأنهم غرباء (1بط 1 : 17) عالمين نهاية الضيقات التي تؤول لمجد عظيم فس السماء (يو 12 : 25) ، فزهّدوا كل شئ عالمي (1تي 6 : 7) ، واشتهوا الانطلاق (4 : 4 ؛ 1كو 7 : 31 ؛ أع 20 : 24) .

وعندما اقتيد الشهداء القديسون إلى الأسكندرية ، تبعهم القديس العظيم أنطونيوس كوكب البرية تاركاً مغارته قائلاً : لنذهب نحن أيضاً إذا ما دُعينا لذلك ، وتاق إلى الاستشهاد ولكنه إذ لم يشأ تسليم نفسه خدم المُعترفين في المناجم والسجون ، وكان يُصلي لكي يصير هو نفسه شهيداً ، لذلك كان يبدو عليه كأنه حزين لأنه لم يستشهد ولكن الرب كان يحفظه لمنفعتنا ، لكي يصير مُعلماً للكثيرين عن النُسك ، وعندما كف الاضطهاد أخيراً ، استشهد المغبوط بطرس بطريرك الأسكندرية السابع عشر خاتم الشهداء ، وانصرف أنطونيوس العظيم واعتزل العالم ثانية في مغارته ، وكان هناك كل يوم يستشهد بضميره ويُجاهد جهاد الإيمان .

ووسط كل هذه الأحداث كانت المُعجزات تُصاحب الاستشهاد ، حتى أن حُكام كثيرين آمنوا (مناس وهرموجين حاكما الأسكندرية ، أركانيوس والي سمنود ، وسوكيانوس والي أتريب ، وأريانوس والي أنصينا وچنيانوس والي القيروان) .

بل وأمنت جموع كثيرة على اثر استشهاد مارجرس وبفوتئوس المُتوجد ، ومكارئوس ابن الوزير ، وأباهور القس البردنوهي الذي بسبب معجزة استشهاده أكمل 920 شخصاً شهادتهم ، لقد صار الاستشهاد شهوة ، حتى أنهم كانوا يُرعون إلى الحكام والولاية مُعلنين مسيحيتهم دون أن يبحث عنهم أحد ، أو يستدعيهم أو يقبض عليهم ، “ عذبوا ولم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة أفضل ” (عب 11 : 35) ، حتى أن القديس أبو فام الأوسيمي الجندي لبس لباس عرسه يوم استشهاده فرحاً مسروراً بلقاء الملك المسيح .

إنها شجاعة الاستشهاد التي أذهلت الجموع المُشاهدة للحرب الإلهية السماوية الروحية ، فالمُعذبون أكثر

شجاعة من مُعذبيهم ، لقد غلبت الأعضاء المُمزقة الآلات التي مزقتها ، وأضحت بعض الوحوش مُستأنسة لهؤلاء الشُّهداء ، بعد أن تكلم الروح القدس على أفواههم ، فكانوا عَظماء في بساطتهم وُقداستهم وقوة إيمانهم وسط كل المخاطر .

وإن كان الشُّهداء قد قُتلوا بالسيف وبالصلب وبالنار .. إلا أن الله لا يتخلى عن قديسيه ولا يتركهم في أيدي الأشرار ، وإن كان الجسد قد سلّم لهم ، إلا أن النَّفس خرجت ظافرة مُنتصرة ، لقد رأى الشُّهداء أن الموت هو بدء التلمذة الحقيقية ، والذين أكملوا عمل الشهادة تمتَّعوا بالتلمذة الحقيقية للسيد .. وصار إكليل الشهادة هو ذروة climax حياة الإنسان المسيحي على الأرض فهو الجعالة التي ينبغي أن يطمع فيها الجميع .

لم يكن المسيحيون يختلِفون مع السلطات بل كانت شهادتهم ضد العالم ، من منظور أسخاتولوجي وليس سياسي ، فعاشوا بروح مجيئية .. (الشيطان عدوهم ، والباراقليط المُدافع والمُحامي عنهم) .. فقَدَموا الكنيسة – التي هم أعضاؤها المُخلصون – كأُم عذراء عفيفة تشهد للحق ، وفي نفس الوقت كان الشيطان يُثير الحكام والعامّة لتعذيبهم ، وتلك هي أسلحته ، وهذه هي غلبتهم ..

القمص اثناسيوس فهمي جورج

2009-9-15



للدراستات الابائية

<http://www.ixoyc.net>

frathanasius.george@ixoyc.net